

## تحديث لعنة بابل

بقلم الدكتور دياب يونس

منَ الحيادةِ يتحدّرون من أرض العراق آساداً من بني أسدٍ، ينزلون أرضَ  
البقاع فالجذبُ بهم يخضوضرُ؛ يُحيقون ببعلبك فيشبهُ لها أن تعددت عمدها؛ يسكبون  
على مدينة الشمس لألاء من أنوار؛ وعلى عروش الجمال أكاليل سحرٍ وشعرٍ يضفرون!  
منَ الحيدريّ الجودتُ المجرّود في كلِّ عملٍ وعلمٍ؛ المغامرُ التّسوقه الأسفارُ إلى  
الأفاق والأعماق؛ الطوافَةُ التّسوقه المغامراتُ وشهوةُ الفتح، يستبدلُ ربّاباتِ بعلبكُ  
بالأبواق، وناياتِ الرّعيان في سهول لبنان بالكمان، والشبّاباتِ بالأراغن، والمزمارَ  
بالقيثار!

طرقَ بابَ لغةِ الإنكليزِ فخرتُ له المصاريعُ صرعى لأنه سيّداً كان سلطاناً،  
ومن أصحاب الجلالات.

أسرَ لغةَ إليزابيت الأولى حتى بدا لقراءته والنقاد أنه على شفّتي أمّه أبصرَ  
ولادتها.

قيل لابن البقاع: "اللغة الأجنبية قناع. هي وقفٌ على قضايا الذهن دون الوجدان.  
فابق على شاطئ بحرك. ابق جزءاً من أرضك، من بيتك، ومن قبور موتاك. إن تقنحم  
لساننا فلن يسعك أن نتوطن فيه. ولن يكون لك، من بعد، لغةٌ إن ضيعت أرضك. فمن  
يتخل عن لغته يحرم عليه أن يكون شاعراً".

قال ابن لبنان: "لبنان حديقه اللغات. ومهد الحرف هو موطن الإنسان. كن من  
تشاء، يا إنسان، فلأنت أخي. أنا رسول حبّ ونبلٍ وروح إليك.

سأرسل "أصواتاً" تذكركم بصوت جبران في "نبيه"؛ سأنقل "أصداء" تبعث "مرداد"  
النعيمه؛ سأبسط لكم "أفياء" كتلك التي نشرها الرّيحاني في "خالده" الخالد. ها أنا ذا  
أتحدّى لعنة بابل".

\* \* \*

---

ألقيت في مهرجان الإبداع اللبناني للعام ٢٠٠٧ بمناسبة الذكرى السنوية الأولى لرحيل الشاعر جودت رستم  
حيدر في قصر الأونيسكو - بيروت، بتاريخ ٤ كانون الأول ٢٠٠٧، وقد شارك في الاحتفال الدكتورة سلوى  
الخليل الأمين، الأستاذ بسام رعد، جامعة البلمند، المهندس جودت بسام حيدر، الدكتور جوزف جبرا، الوزير  
ميشال إدّه، الوزير خالد قبّاني، وأدار المهرجان الأستاذ جهاد الأطرش.

مضى جودتُ حيدرُ يتحدّى:  
 رَبَّةُ الشَّعْرِ مَسَحَتْهُ بِمَيْرُونِ الإِلْهَامِ.  
 كَلِمَاتُهُ أُخْرَفًا كَانَتْ تَشْفَى، وَأَجْنَحَةٌ تَهْفُ.  
 مَفْرَدَاتُهُ الْمَنْحَوَاتُ تَأَنَّقَتْ وَتَأَلَّقَتْ لِمَعَانَا كَحَبَّاتِ الْمَاسِ.  
 قِصَائِدُهُ الْفَرِيدَاتُ بَنِرْتَهَا الْمَخْمَلِيَّةُ الدَافِنَةُ تَلَالُاتُ مَحْبُوكَةٌ كَالزَّرْدِ.  
 أَلْفَاظُهُ الْمَدَلَّلَاتُ سَارَتْ فِي مَوْكِبٍ مِنْ أَنْعَامٍ حَتَّى لَكَأَنَّ شِعْرَهُ بَاتَ مُوسِيقَى.  
 أَغْوَتُهُ الْإِنْكَلِيزِيَّةُ الشَّقْرَاءُ فَوَقَعَ أَسْمَرُنَا الْعَرَبِيُّ فِي أَغَاوِيهَا.  
 إِلَى لُجْجِهَا غَاصَ، فَفَقَّصَ الْمَحَارَ.  
 وَرَاءَ شَوَارِدِهَا تَشْرَدَ فَحَطَمَ الْأَسْوَارَ وَأَبَّ بِالْأَسْرَارِ.  
 تَنَفَّسَ عَلَى إِيقَاعِهَا.  
 أَسْمَعَهَا نَبْضَ قَلْبِهِ وَاخْتِلَاجَ الْحَنَانِ وَالْحَنِينِ فَذَنَّتْ مِنْهُ بَعْدَ صَدِّ تَوَاصُلِهِ.  
 سَقَطَ الْخَمَارُ، وَسَقَطَ النَّصِيفُ وَقَدْ أَرَادَتْ إِسْقَاطَهُ. وَطَنَّتْهُ نَفْسَهَا فَاسْتَوْطِنَ،  
 وَسَكَنَتْ فِيهِ، وَسَاكَنَهَا، فَوَلَّجَ كُلَّ حَمِيمٍ، وَكُلَّ حَلِيلٍ، وَكُلَّ حَرِيمٍ.

\* \* \*

وسرى في سماء الإنكليزية كوكبٌ مشرقٌ بهيٌّ، شجيٌّ. وسمع القومُ صوتاً  
 لبنانياً يترقرقُ ناعماً طرياً قادماً من البعيد، ينفثُ نَفْحَاتٍ رُوحَانِيَّةً تَأْمَلِيَّةً عميقةً؛ وَيَبِثُّ  
 دَفْقَاتٍ مِنَ الْمَحَبَّةِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَالْحُبِّ الصَّوْفِيِّ، مِنَ الْفَرَحِ وَالْكَآبَةِ وَالْإِنْفِتَاحِ؛ وَيَلْهَثُ  
 حَسْرَاتٍ عَلَى فَرْدُوسٍ ضَاعَ، وَحَنِينًا إِلَى مَاضٍ دَرَسَ وَبَادَ، وَإِلَى أَيَّامٍ أُسِّسَ سَرِيعَاتِ  
 الْخُطَى؛ وَيَذُوبُ حَنَانًا إِلَى أَهْلِ تَوَارِوَا؛ وَمَوْطِنٍ تَشْلَعُ، وَأُمَّةٍ قَعَدَتْ عَنِ صِنَاعَةِ الْمَجْدِ؛  
 وَيَنْطَلِقُ فِي نَشْوَةِ الْمَشَاهِدَاتِ الْمَثَالِيَّةِ؛ وَيُطَلِّقُ، بِثَرَاءٍ عَمَقِيٍّ، خَوَاطِرَ فِي الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ  
 خَضْبِيَّهَا الْفِكْرُ وَالْقَلْقُ وَالْمَرَارَةُ؛ وَيُصْعَدُ مِنْ أَعْمَاقِ قَلْبِهِ الْمَغْلَفِ بِالْكَبْرِ وَالصَّبْرِ صَرَخَاتِ  
 مَكْبُوتَةٍ تَتَمَزَّقُ وَتُزَمَّرُ؛ وَيَسْتَشْفُ الْآتِيَّ بِمَنْطِقِهِ الْحَدْسِيِّ الشَّفَافِ بِمَا يُحَاكِي التَّنْبُوْءَ؛ وَيَنْفُخُ  
 فِي الْإِنْسَانِ عِزَّةً، وَفِي اللَّبْنَانِيِّينَ وَمَقَاوِمَتِهِمْ، يَصُبُّ عِزْمًا: قَلْسُوفَ تَهْتَضُونَ مِنَ اللَّهْبِ  
 وَتَرْفَعُونَ أَعْلَامَ الْمَحَبَّةِ وَالْحَرِيَّةِ فَوْقَ أَرْضِنَا الْحَبِيبَةِ: اللَّيْلَةَ كَأَسَّ، وَغَدَا سَيِّفًا.

\* \* \*

جَوَدْتُ حَيَّرُ، أَيُّهَا السَّيِّدُ الْجَلِيلِ،

حَسْبُكَ يَا ابْنَ دَوْحَةِ الْمَجْدِ، أَنْكَ يَمَمْتَ وَجَهَ الْمَجْدِ، وَتَحَدَّيْتَ لَعْنَةَ بَابِلَ؛ وَأَنْكَ  
أَزْوَجْتَ بَيْنَ النَّايِ وَالْأَرْغُنِ، وَمَزَجْتَ صَوْتَ الشَّرْقِ بَرْنِينَ الْغَرْبِ؛ وَأَنْكَ لَمْ تَكُنْ غَرْسَةً  
هَجِينَةً فِي دُنَى الشُّعْرِ الْإِنْكَلِيزِيِّ بَلْ شَاعِرًا أَصِيلًا، وَمَفْكَرًا كَبِيرًا، وَنَمُونَجًا فَذًّا مِنْ  
نَمَازِجِ الْعَبْقَرِيَّةِ اللَّبْنَانِيَّةِ؛ وَأَنْكَ كُنْتَ، فِي مَسَارِ عَمْرِكَ الْمَدِيدِ الْمَكَلَّلِ بِالثَّمَارِ وَالْمَأْتَرِ،  
تَشْمَخِرُ بِأَنْفِ الْعِزِّ مُنْقَبِضًا      عَنْ رُتْبَةِ نَالِهَا الْأَوْغَادُ بِالْحَيْلِ.